

بقايا الفصح

وردت في محاضرة من محاضرات دمشق في الشهر الماضي هذه العبارة : فالسياسة
المجرّدة من علم النفس انما هي سياسة مُفسّشة ، ولما سمع الجمهور لفظ : مفسّشة ،
ابتموا ، فهذه المادة العامية منحدرة من أصل فصيح ، وابتسام الذين سمعوا دليل
على موقع أمثال هذه الألفاظ في أفهام الناس ، جاء في القاموس المحيط : فشفش ،
ضعف رأبه ، ولكن العامة في دمشق توسعت بعض التوسع في معنى هذه المادة ، فاذا
قالت : فلان فشفش ، أرادت بقولها انه ضعف ولم يبق له أمر نافذ ولا عمل ولا تأثير ،
وما أظن ان لفظاً من الألفاظ يقوم مقام : فشفش في أفهام العامة ، فاذا قلنا لها : فلان
ضعف أو قلّ سلطانه أو قرب زواله ، فكل هذا لا يعني عن قولنا : فلان فشفش :
وابتسام الجمهور الذي أشرت اليه برهان على منزلة هذه المادة في أفهام الخاصة والعامة معاً .
وقد ذكر المبدائي هذه المادة في أمثاله ، إذ قال : — سميتك الفشفاش ان لم تقطع —
الشفشاش السيف الكهام وروى ابو حاتم الفشفاش بكسر الشين ، جعله مثل قطام
ورقاش ثم أدخل عليه الألف واللام يضرب لمن ينفذ في الأمور ثم خيف منه النبو .
والمادة في هذا المقام تحتوي على شيء من الضعف .

ومن قول العامة في دمشق : فلان ذلق فقال كذا . . . وكذا . . . ، وذأقه
فلان ، بالتشديد ، فقال كذا . . . وكذا . . . وفلان ذلق لسانه فقال كذا . . . وكذا . . .
وهي تريد بقرطها هذا انه قال شيئاً على الرغم منه ، أو على سبيل النسيان ، أو من
باب الاكراه والاستدراج في الاستنطاق ، وذلك ان المرء يخفي شيئاً في قلبه ثم يجري
هذا الشيء على لسانه لأمر من الأمور التي ذكرتها ، فما هو أصل هذه المادة ،
واذا كان لها أصل فصيح فهل من نسبة بين الأصلين العامي والفصيح ؟ .

في اللغة : ذلق اللسان كفرح فهو ذلق وأذلق أي ذرب ، وذلق اللسان كنصر
وكرم فهو ذليق وذلق بالفتح وذلق كصرد وعنق ، أي حديد ، بليغ ، فعلى هذا
الوجه ليس بين المادتين العامية والفصيحة شيء من النسبة .

فلنبحث عن معنى آخر لهذه المادة ، من معاني : أذلقه ، أقلقه وأضعفه ، ومن

معانيها: أذلق الضب ، صب الماء في جعره ليخرج كذاًفه ، فأرى ان النسبة بين الأصلين العاصي والفصيح قد وضحت .

جاء في الأغاني ، في كلام صاحبه على وقعة بدر ما يلي : فضربوها أي ضربوا غلامين لبني الحجاج وبني العاصي ، فلما أذلقوهما قالوا: نحن لأبي سفيان ، فتركوهما
فمضى أذلقوهما في هذا المقام أذلقوهما وأضعفوهما ، أو على سبيل الحجاز أخرجوهما كما 'يخرج الضب' ، حتى أقرأ بالذي يريد القوم .

وعلى هذا الشكل اذا قالت العامة: فلان ذلق فقال كذا وكذا فإن قولها له أصل فصيح ، ولكنها تصرفت بعض التصرف في هذه المادة ، فقد استغنت عن الأصل الرباعي: أذلقه ، ومالت إلى الفعل الثلاثي ، فجعلت منه فعلاً لازماً ، فبدلاً من أن تقول: أذلقه فأذلق ، أو ذاقه فذائق ، للمجهول ، خففت المادة وبنيتها للمعلوم ، فجعلت منها فعلاً لازماً وهو: ذلق ، وهي تلفظ هذا الفعل بكسر العين ، أي من باب فرح ، فاذا قالت العامة في دمشق: فلان ذلق فلاناً بالثديد ، فذلق ، فلما ذلق قال كذا وكذا فان قولها هذا مبني على أساس فصيح .

ومن قول العامة: تخانقوا ، أي تقاتلوا ، والذي في القاموس المحيط: خنقه فاخنتق ، إلا ان هذه المادة وردت في الأغاني فقد ذكر أبو الفرج في أخبار جعفر بن عتبة الحارثي الأسباب التي هاجت الحرب بين جعفر بن عتبة وبين عقيل فقال في جملة الكلام: فتحادثنا عندها - أي عند أمة لشعيب بن صامت الحارثي - فالت إلى العقيلي ، فدخلتها مؤاسفة حتى تخانقا بالعمائم فانقطعت عمامة الحارثي وخنقه العقيلي حتى صرعه

فالتخانق كان في القديم بالعمائم ، كل واحد يحاول ان يخنق الآخر حتى يصرعه ، ثم تعاقبت العصور على هذه المادة ، حتى أدركت عصرنا هذا ، فأطلقت فيه على مجرد المقاتلة ، فلا يشترط في التخانق في أيامنا وجود العمائم ، فإذا قلنا: تخانقوا أردنا بقولنا هذا مجرد التقاتل ، فقد يتخانق القوم ولا عمائم على رؤسهم ، واشتقت العامة من هذه المادة لفظ: خناقة ، وأضافتها إلى: مخانقة ، وهي كثيرة الاستعمال لها فاذا قالت: في حي كذا أو شارع كذا خناقة فانها تريد بهذا القول: مخانقة ، أي مقاتلة .

وكثيراً ما تستعمل في عامتنا لفظ : محشوك ومحشوكين ، ونحن نريد بالأول المكان وبالتالي الجماعة ، فإذا قالت العامة : محشوك ، أرادت بقولها مجلساً مزدحماً ، وإذا قالت ، محشوكين ، أرادت : جماعة مزدحمين .

وأصل هذه المادة الفصيحة يدل على الكثرة والاجتماع ، حشكت الناقة لبنها حشكاً وحشوكاً ، جمته ، فهي حشوك ، وحشكت السحابة كثر ماؤها ، والنخلة كثر حملها فهي حاشك ، وحشك القوم ، تجمعوا .

فما أكثر الأطوار التي تقلبت فيها هذه المادة ، فقول العامة في مجلس من المجالس : محشوك ، معناه : ملآن ، وعلى هذا فإنها استعارت هذه المادة من حشكت الناقة لبنها ، فاللبن محشوك ، أي مجموع ، ولكن العامة بدلاً من أن تطلق لفظ محشوك على القوم المجموعين اطلقته على مكان الاجتماع ، فإذا استعملت هذه المادة مفردة أطلقتها على المكان وإذا استعملتها جمعاً أطلقتها على الجماعة المجموعين في المكان ، وفي كل الأحوال فإن بين استعمالها لهذه المادة وبين أصل المادة الفصح نسبة قوية ، فلفظ : محشوك ، الشائع في دمشق أصله فصيح ، والعامة تستعمل في كلامها مصدر هذه المادة ، فمن قولها : حشك كثير .

ولا بأس بأن أختتم هذا المقال بذكر تركيب ، فيه شيء من اللغة الشعرية ، في أيام المشمش نسمع كثيراً في دمشق المناداة الآتية : حلو الدلال يا حموي ، والمشمش الحموي أنخر أنواع المشمش ، ومدته قصيرة جداً ، فإذا استعملت العامة في نداءها هذا التركيب الشعري ، فهي تريد أن تفصح عن منزلة المشمش الحموي في الأفواه والأذواق .

وكم يكون مبلغ عجبنا إذا علمنا أن هذا التركيب بعينه جاء في شعر وضاح اليمن :

دعاك من شوقك الدواعي وأنت وضاح ذو تباع

دعتك ميالة لعب أسيلة الخد باللماع

دلالك الحلو والمشمهي وليس مربك بالمضاع

فلا تزال العامة في دمشق تستعمل في كلامها اللغة التي كان يستعملها

وضاح اليمن في شعره على أيام بني مروان !
تفتيح هيري